الحرية وأزمة المجتمع العربي

بقلم عزيز السيد جاسم

الحرية كقانون عام في الاشياء والانسان :

قبل الحديث عن الحرية كمضمون انساني يتعين علينا فهم الحرية فهما طبيعيا ، وذلك عن طريق رصد وجودها في المخلوقات الحية اللابشرية . وبكل بساطة نستطيع فهم معنى الحرية في هذا المجال على أساس انها (الحركة) . فالاشياء تمتلك حركتها الذاتية في تجاوز مستمر عن الحالات السكونية الطارئة . وهذه الحركة تعطي للشيء وجوده الحي والمتغير الذي يحمل في تضاعيفه احتمالات التحول . وقد أكدت (المادية الدايلكتيكية) ان (المادة) و (الحركة) متلازمتان تلازما كليا ، فلا توجد هنالك (مادة) بدون (حركة) لان ذلك يتطلب وجود (سبب خارجي) او (دفعة) تسبب الحركة ـ والدفعة الخارجية نفسها هي حركة مادة أخرى ـ كما وانه لا توجد (حركة) بدون (مادة) لانها (مرادفة لوجود فكر بدون دماغ) (١) والمادية الدايلكتيكية لم تستقرىء ذلك عن طريق المواضعات التجريدية بل انها تأكدت هي وكافة معطياتها من خلال تطور (العلم) وتنامي (العمل البشري الاجتماعي) بشكل فني ومنظم .

وفي (البيولوجيا) قدمت الدراسات الموضوعية عن (العضويات) معلومات هامة عن الحركة العضوية وانتظامها الفريد مما دفع الوعي بالمادة والحركة الى مدى واسع . وعلى العموم فان الحركة انما تعني في مجمل معناها حرية الاشياء في ان تكون ولا تكون في نفس الوقت . وانتقالا من (الكينونة) الى مدرجات (الصيرورة) تتبدى هذه (الحركة ـ الحرية) كقانون رئيسي يستقطب الظواهر كافة في ديناميكية متصلة الحلقات . ولكن تظل هذه الحرية قاصرة من حيث انها حرية لا واعية وتدخل في صلب جواهر الاشياء العميقة . ولكن التطورات العضوية في الحقب الطويلة اكدت ان الاقتراب ـ في مسيرة التطور ـ من التمهيد لنشوء (الدماغ) يوفر نوعا من النشاطات العليا التي قد يتهيأ لها ان ترقى الى مستوى النشاط الذهني . وهذا نفسه يلقي ضوءا اكثر على الترابط بين (الحرية) و (العلية) و (الضرورة) ، مما يؤكد ان الحرية ليست مجرد صفة خارجية او حركة مقطوعة الجذر بل هي وجود كائن في حيز ، وجود هو نفسه سمة الاشياء التي تتحرك . وبذا فالعالم ومنذ البدء وباكمله هو ملحمة (حرية) ، ملحمة حركة لا تتوقف وسريان مستمر .

والانسان كأرقى المخلوقات قد ورث الحرية عبر حركته هو وبصورة أكمل واكثر تعبيرا . فالحرية عنده ليست رأيا او اعتناقا توصل له كحل من أنسب الحلول لتوكيد وجوده بل أن حريته هي عينها الحرية الكونية والحرية الطبيعية ، حرية الانسان الحجري ، وحرية القرد ، وحرية الالكترون ، وحرية النسغ صعودا أو نزولا .

هذه الحرية التي تنفل في اعماق الاشياء ، هي قانون الاشياء الاول . وهي تفرض نفسها في الانسان بكل موضوعية . ولكن الحرية عند الانسان تأخذ بعدا آخر اكثر عمقا واتساعا . فالحرية عنده تتأنسن وتتعقلن . انها تتأنسن فيما انها تتخذ شرطا انسانيا فالحرية : (هي الوعي الذي يمتازه الانسان عن ذاته في عنصر الممارسة . أي هي المعرفة التي يملكها انسان عن آخر بوصفه مساويا له) ـ ماركس ـ (٢). وهي في التأنسن هذا تتماسك بالوعي الذي يعطي لها أفقها البشري والتاريخي ، على ان ذلك الوعي لا يمكن ان ينعزل في رقعة الذاتية بل هو الوعي ضمن الحركة الجماعية للانسان و (انما في الجماعة وحدها حرية الشخص ممكنة) ـ ماركس ـ .

والذي نخلص اليه هنا هو ان الحرية عند الانسان هي قانون عام سابق لوجود الانسان ومتطور لديه . وهو في تطوره الانساني استكمل حقيقته الانسانية بواسطة الوعي والممارسة الجماعية . ولكن هذا القانون العام لا يمكن ـ في وضعه الانساني ـ ان يتجرد نهائيا من معناه البديئي الاول ـ الحيواني ، الطبيعي ـ ولهذا تتجاذب الحرية احيانا موجتان : (العقلية) الجديدة والخلاقة ، و (الغرائزية) الاولى والمتوترة . ومن خلال هذا الشد والجذب وبفعل التقسيمات الاجتماعية العديدة ظهرت الالتباسات في (الحرية) كفهم وسلوك .

الحرية وتقسيم العمل :

في المرحلة الاولى للوجود الاجتماعي للانسان ـ مرحلة التحول من الحيوانية الى الانسان كمعنى اول ـ كان الانسان عبارة عن حرية غامضة تلقائية . فالجو المشاعي البدائي كان تصويرا لحركة الانسان الاول في الغابة او في الجبل او في الحفر دونما قصد أو هدف سوى ما يشبع حاجته الذاتية . وهو في وضعه ذلك كان لا يمتلك ولكنه يشير الى التطور الجنيني لحرية الامتلاك . وعبر المراحل التطورية لحركة الانسان الجماعية وبعد ان ظهر العمل كقدرة واعية يستعملها الانسان لاجتياز رغباته الاصلية ظهر التقسيم الطبقي في البناءات الاجتماعية . ومنذ ذلك الحين اتخذت الحرية طابعا مزدوجا . فهي تخلصت من (العفوية) الاولى وخضعت للقيود الجديدة التي استلزمتها الشروط الاقتصادية الموجودة والامتيازات الاجتماعية . ومع ذلك ـ وفي كل عهود الرق والقنانة والنشوء البورجوازي الاول ـ كانت هناك حالة فردية ، هي حالة حرية (اللامنتمي) الذي يسعى للتمرد على ربط (الحرية) بالتقسيمات الجديدة التي أوجدتها الحركة المجتمعية . ولكن هذه الحالة الفردية شاذة وفاشلة مسبقا في اعطاء مضمون الحرية الاساسي دون ان تقوى ـ في تحصيل الحاصل ـ على التحرر تماما من التلازم بينها وبين قوانين المجتمع التطورية .

اذن فالحرية وبعد التقسيم الاجتماعي للعمل اكتسبت شيئين : اولا : الوأد من حيث انها فقدت معناها الذاتي بفعل ظهور الاضطهاد الطبقي . وثانيا : تشكل مفهوم جديد للحرية يتحدد عبر المطالبات الاجتماعية المتواصلة ضد العبودية واللاحرية . فلم يبق ازاء ذلك انسان حر او مجتمع حر بل بقيت فقط علامات نضالية من أجل الحرية ، وهذه العلامات انما تنبىء عن ازمة الانسان الممتلىء بحس الحب للحرية والذي يجد نفسه مخنوقا في حدود بيئة مرسومة رغما عنه . ويظل التساؤل لدى هذا الانسان المأزوم : هل أنا حر حقا ؟ او هل امتلك القدرة الكافية على ان أؤكد حريتي خروجا معنويا على كل ما هو مفروض علي ماديا ؟ وقد أجاب سارتر ، وتلخص جوابه في ان الانسان هو حريته . وهو يمارس ولوحده فقط التلذذ بحريته . فهو قد يكون (سجينا)

١ ـ عن الموسوعة السوفياتية الكبرى ـ ترجمة الاستاذ ابراهيم كبه .

٢ ـ العائلة المقدسة ـ كارل ماركس ـ .

ولكن هذا لا يمنعه أن (يقرأ أو يكتب أو يغني في السجن !)

وجواب سارتر هنا ينطلق من موقع الاعتداد الذاتي، وهذا الانطلاق جعله لا يميز بين نوعين أساسيين من أنواع الحرية . نوعين افترضهما التقسيم الاجتماعي للعمل . فهنالك : (الحرية الجوهرية والتاريخية) وهنالك (الحرية الثانوية) . والحريات الثانوية التي تحدث عنها (سارتر) هي امتداد لحركة الكائن الانساني الطبيعية . اي هي (قوة) الذات في تحقيق وجودها . فما أهمية حرية السجين في أن (يتغوط) ازاء حقيقة انه (سجين) ؟

ان التفاوتات الطبقية وما أوجدته من مقاييس جديدة واوضاع مقلوبة قد عرضت الحريات الجوهرية والاجتماعية الى شتى انواع القسوة والامتهان ، بحيث اصبح أي حديث منفصل ومعزول اجتماعيا عن (الذات) وحريتها هروبا عن المسألة الرئيسية مسألة كيف يمكن للانسان أن يحافظ على حريته (المعرضة للاستلاب الدائم) في ظل المجتمعات الطبقية !

البورجوازية ورؤيتها للحرية :

ان البورجوازية بالنسبة لما تحتويه من وعي مغاير جاءت كقوة تقدمية تاريخية قياسا الى ما سبقها من عهود . فالمظالم التي تمت في خضن النظام الاقطاعي كانت تشير الى الخطورة التي تتعرض لها البشرية ، هذه الخطورة التي باركتها الرجعية الدينية وبذلك شلت حريات عديدة وذات أهمية تاريخية . ولكن (الحرية) تتلمس مفهومها وطريقها الجديد حتى في اخطر فترات الوأد . وعلى يد البورجوازية تمت التهيئة الضرورية لاصابع الفكر السابق والرجعي . وشقت البورجوازية طريقها وراء شعارات كبرى (الحرية ، المساواة ، الاخاء ... الخ) . وبديهي أن البورجوازية عندما تؤكد على (الحرية) انما تتحرك في ذلك بحكم قانونها ومصلحتها الاقتصادية . ولذا فهي لم تعن بالحرية الحقيقية (وذلك غير وارد في مخيلتها . ان (الحرية) التي ناضلت البورجوازية من أجلها هي الحرية التي تشكل امتدادا ـ دون تعارض ـ لحرياتها الاقتصادية وركائزها الاخرى ، في أن تتاجر او تبحر او تقيم النقل البحري او تنشيء الورش والمصانع ... الخ ، مع ما يرتبط بذلك من وسائل حماية وجودها وتنميته .

ان الخطر الذي هدد الحرية سابقا هو نفسه الذي يهددها في العهد الرأسمالي . ولكن (الاقطاع) المعتمد على الخرافة والتصفية الجسدية في حفاظه على نفسه ، يختلف كثيرا عن (البورجوازية) المعتمدة على (العلم) في تثبيت مراكزها . وهذا العلم هو الذي أعطى للحرية معنى جديدا ، كما انه خلق طرائق مغايرة للنضال ضد السيطرة الطبقية . ولهذا فالديمقراطية البورجوازية كانت افضل بما لا حد له من الوضع السائد في الزمن الاقطاعي . انها توفير مجالات أوسع للحرية وتأكيد على أهمية الانسان فردا وجماعة . ولكن ذلك كله يتم ضمن (الارادة البورجوازية) و (التصور البورجوازي) .

في حين ان التصور الانساني الحقيقي للحرية هو صياغة جديدة معاصرة وعلمية للحرية التلقائية التي كان يمارسها الانسان في عصر (المشاعية البدائية) . والبورجوازية اذ تعي جيدا طبيعة الحرية التي تهمها فهي لا تتورع عن تقديم تخريجات وتحليلات جديدة عن الحرية مستعملة كل ما في قاموسها من صفات مثيرة لعلها تستطيع بذلك طمس معالم الحرية الصادقة . ولكن الطابع البراجماتي المميز لها واولوية مهمة تجميع (راس المال) لديها لا يحجب ابدا حقيقة الغش الذي تتعرض له الحرية من قبل السيطرة البورجوازية الطبقية وتحت تسمية (الانسانية) و (الاخلاق) .

لماذا يستحيل وجود (الحرية) في ظل الرأسمالية ؟

ان المعطيات البورجوازية التقدمية الاولى التي قدمتها البورجوازية ابان نشوئها الثوري كحامل معول دفن الاقطاع لم يقدر لها الالتصاق بالانسان بشكل كلي ، لان المفاهيم عموما والعلاقات انما تتقرر بموازين الشبكة الطبقية ، ومن هي الطبقة السائدة فترتئذ . والبورجوازية لانها في اول عمرها يهمها ان (تتحرر) من سيطرة الاقطاع فهي وبالضرورة ترفع شعار (الحرية) ولكنها وبعد ان تثبت مواقعها وتستلم السلطة السياسية تتحول الحرية الى طاقة مضادة تبيح للقوى الاخرى (عمال، فلاحين ، برجوازية صغيرة ...) ان يواجهوها بعناد . ولذلك فهي لا تتورع عن سن قوانين كابحة ولا يضيرها ان تلجأ الى (المكارثية) او الى القمع الفاشستي لادامة سيطرتها .

اننا لا نستطيع الى جهد كبير لندرك ما معنى حرية البورجوازي . انها حريته في ان يستغل ، في أن يحتكر ، في ان يقلص أجور العمال ، في ان يطيل ساعات العمل ، في ان يتلاعب بالاسعار ، في ان يلجأ للمضاربة وينشيء السوق السوداء ويغذي ظروف الحرب .. الخ . هذه هي الحرية عند البورجوازي ، ويلحق بها السياسة الشيطانية ، والفكر المسموم والمحرف ، واغراق المناقبية في بئر جوعه النهم لاكتناز المال .

ومن الجانب الآخر تتحرك الاشياء الحاسمة والتاريخية . فهناك الاكثرية : العمال الذين يشكلون القوة الحقيقية والوحيدة التي تقوم بالانتاج ويغتصب منها الرأسمالي قوة عملها . فالعمال يفكرون بالتحرر كما فكر البورجوازي في بدايته . وهم يريدون اعادة النظر في تاريخهم. فالحرية لديهم تعني أن لا يظلوا اجراء . ومن هنا يحصل التقابل المتضاد : بين القلة البورجوازية المستغلة ـ بكسر الغين ـ والمترفة والطفيلية المترهلة ، وبين الكثرة الكادحة والمسلوبة الحقوق . واذ يصعب على البورجوازي أن يتوصل الى مخرج (كان ينمي الارستقراطية العمالية ويوجد قطاعات عمالية تشترك في المائدة البورجوازية ، او كان يلجأ الى وسائل عقلية متعددة ..) فانه تتحرك لديه (حرية حيوانية) تستعمل فنون البطش والارهاب والابادة ضد العمال عند التظاهر من أجل حقوقهم المشروعة .

فالحرية اذن خدعة ذهبية تدعي بها الرأسمالية مع ان استحالة وجود الحرية الانسانية الحقيقية تتقرر يوميا وعبر الكثير من مظاهر البطالة وفوضى الانتاج والسرقات العلنية والاضطرابات والتمييز العنصري والاعتداءات الارهابية .

قسيمة المجتمع العربي التطورية :

والمجتمع العربي لا ينفصل باي حال من الاحوال عن السياق التطوري العالمي ولكنه في ذلك انما يؤكد خصائصه الذاتية . ولعل الضغط الخارجي ، ضغط التضخم الحضاري الراسمالي على المجتمع العربي المتخلف ، قد ولد ظاهرة عامة هي ظاهرة الاختلاط بين الحركات الانتاجية ودرجتها الاجتماعية . وهذا الاختلاط (البورجوازي ـ الاقطاعي ـ الشبه بورجوازي ـ الشبه اقطاعي ـ البدوي) رسم قسيمة خاصة للمجتمع العربي وانشأ ضغطا هائلا على الانسان العربي الذي اضحى محاصرا في عدة جبهات ، داخلية وخارجية . وبالاكيد ان هذا الضغط الهائل يؤثر على رؤية الانسان العربي للحرية . وبدلا من الرؤية السابقة والشبه متجانسة تقريبا ابان المسح الديني العام للمجتمع العربي حيث كانت الديانة الاسلامية تضع الخطوط الفكرية الكبرى التي تنتظم الوعي الشعبي العربي ، حلت رؤيا جيدة غير منظمة تسعى لتلمس بدايتها . وهذا التلمس متعدد الاشكال ومعرض للاجهاض او للمراجعة او النقض بحدة وفي فترات زمنية قصيرة . وعندما تطورت الحركات الجماهيرية على الارضية العربية واخذت تدخل ساحة الممارسة الثورية ظهرت ثقة مهمة بان هنالك نضالا جماعيا من أجل ضمان الحرية للانسان . ولكن مع ذلك تبدى شيء جديد .

ذلك هو أن النضال نفسه اخذ يتلوى تحت ظلال التقليد البورجوازي او الاقطاعي فظهرت في التنظيمات التقدمية اخطاء كثيرة سواء أكانت في (البنية) الاجتماعية او في العلاقة بين (القيادة والقاعدة) أو في تحديد (الستراتيجية والتكتيك) أو في المسائل التكنيكية .. الخ . وبنوع او بآخر حدث ارتجاج بين مفهومين واقعيين

المفهوم الاول هو ان الحرية لا يتم تظهيرها الا بالنضال الجماعي (عن طريق الاحزاب الثورية او المنظمات او النقابات او الجمعيات .. الخ) والمفهوم الثاني ان الحرية نفسها تشوهت عند العديد من التنظيمات الثورية بما حدث فيها من (دكتاتورية او عبادة الفرد او بروز الطابع الطائفي او الكهنوتي او حلول الميكافيلية ...) وهذا الارتجاج انما يعكس حقيقة المجتمع العربي المزدحمة بالتناقضات الكثيرة . ولما كانت الحرية ليست مفهوما طوبائيا فهي وبحت وطأة هذا الازدحام الفوضوي في التركيبات الاقتصادية والاجتماعية والنسياسية .. في العالم العربي تعرضت لحجر قاس ، بل ان الحرية نفسها شلت في قطاعات واسعة الى درجة انه يصدف وجود مواطن عربي لا يهمه ان يفهم ماهية الحرية. ان منطقة ريفية كبيرة يحكمها رجل اقطاع شديد ويمارس اوسع السلطات وبشكل مطلق ازاء رعاياه (من الفلاحين الذين يحصيهم كما تحصى الماشية !) ، هذه المنطقة بكامل سكانها يعتبرون ان من حق (الشيخ الجليل !) ان يقيد الفلاح المخطىء بحقه بـ (السلسلة) وفي (ساحة المضيف ـ ديوان رجل الاقطاع الذي يواصل فيه اجتماعه برجاله ـ) او يعتمد الى كيه او ربما الى قتله او الى طرده من ارض العشيرة ـ الى آخر ما هنالك من وسائل التعذيب القديمة . فهناك اذن نموذج للفلاح الذي يؤمن بعبوديته الكاملة وبسيادة (الشيخ) الشرعية (كذا ؟) بحيث يكون اي نقاش حول منافاة وسائل الاقطاعي للحقوق الانسانية مبعث غضب هذا الفلاح . بل ان هناك ما هو أدهى : (ان يتصل فلاحو منطقة بالسلطة طالبين عدم شمولهم بتطبيق قانون الاصلاح الزراعي لانهم متفقون على علاقاتهم السابقة مع (الشيخ) (٣) . وهناك نماذج أخرى في المدن ، عمالية او بورجوازية صغيرة ، تحمل هويتها القديمة هوية جذرها الريفي وقد تشكل هذه النماذج عقدة ـ تتوضح مضاعفاتها بعد مضي فترة من الزمن (٤) .

فقدان الحرية المعاشة يستوجب النضال من أجل الحرية :

اذن ففي الواقع العربي تآمرت عدة قوى على سلب حرية الانسان العربي ـ فردا وجماعة ـ فهناك القوى الطبقية الاستغلالية التي تلجأ الى أبشع وسائل الاضطهاد وكبت الحريات ، وهناك النظم السياسية الرجعية التي تمثل نفسها حامية لمصالح الرجعيين والبورجوازيين ، وهناك الاستعمار العالمي المقنع وراء نتاجه الحضاري المتورم . كل هاتيك القوى عقدت اتفاقية المصلحة ضد ارادة الشعب العربي وحريته ، واقدمت على أخبث الوسائل وأمكرها في الحقل المادي قناعة منها بأن هذا الحقل منه تنطلق الحقول الاخرى . فقاومت نشوء (الصناعة الثقيلة) لمنع ظهور طبقة بروليتارية متماسكة ثوريا وتنظيميا ، وحاولت اخضاع الريف لعلاقات زراعية بدائية لابقاء الفلاح على تخلفه وعدم تبلور وعيه الثوري ، وسعت الى تحطيم صفات المثقف الثورية عن طريق الرشاوى والامتيازات الممنوحة بسخاء وعن طريق بث الفكر التحريفي والانهزامي والذاتي اليائس . ونصبت لها كوادر عاملين بمهارة لامرار مخططاتها واشاعاتها ، ولزرع التجزئة والتناحر الداخلي ... الخ .

وكانت الحصيلة ان المواطن العربي ـ على الاعم والاغلب ـ ظل يعاني بمرارة من وطأة هذا التآمر المدعوم بالفكر الغيبي الرجعي والتقاليد العتيقة والجامدة . ومعاناته هذه تحتاج الى تمردات عديدة يبتدئها اولا وقبل كل شيء ضد نفسه وبرفقة قضاياه الاجتماعية المطورة بأسلوبه الجديد ، علما بأن التطهير الذاتي لا يتم اطلاقا بمعزل عن النضال ضمن التيار الاجتماعي العام .

ان مبررات النضال من أجل الحرية تنطلق من الخلفية الواقعية الآنية :

١ ـ الفلاحون الذين يشكلون نسبة ٨٠٪ من المجتمع تقريبا متخلفون ولا يمكن تحريرهم بالتوعية بل بأعطائهم الارض اولا .

٢ ـ المنتجون الصغار والحرفيون واصحاب المهن العادية . وهم أيضا يشكلون نسبة ليست صغيرة . وهؤلاء ايضا متخلفون وملفعون بالاوهام والخرافات ولم تنفتح أمامهم مجالات لتطوير وضعهم المادي .

٣ ـ العمال لم يتوصلوا بعد الى وعي مكانتهم الثورية والقيادية الواجبة . وتمتلىء أذهان الكثير بأفكار بدائية او سطحية تطغى عليها أغلب الاحيان النزعات الانانية والفكر الغيبي والعادات المتوارثة . وهم لم يوفقوا ـ ما عدا في بعض المناطق ـ الى نيل حقهم المشروع ماديا وسياسيا .

٤ ـ أما الناحية الثقافية فهناك سطوة خاصة للفكر الرجعي في اغلب القطاعات العربية . واغلب دهاقنة الفكر توقفوا عن حدود معينة دون أي انفتاح على الفكر التقدمي . وقد جاء الانفتاح متأخرا ومع ذلك لم يفلح في أن يأخذ وجوده المتماسك . وبالنسبة للسوق يتضح ببساطة أن (المكتبات) تفتقر الى الكثير من الكتب الحيوية لا لعدم وصولها بل لان (الكتاب) قد يشكل مادة تجريم ضد صاحبه (٥) .

اذن فالانسان العربي معزول قسرا عن دوره الذي ينبغي . انه محاصر ومضايق . وهذه المحاصرة التي وصلت الى حد المأساة ليست محاصرة فكرية فحسب بل هي قهر كامل وعات ، اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا وسياسيا . ولهذا فالانسان العربي ينزف دما دوما وجراحاته

---

٣ ـ ان ما اذكره من امثلة لا يعني الفلاحين عموما اذ ان هنالك فلاحين يمتلكون اصالة ثورية مشرفة ، بل ان هنالك عشائر فلاحية ذات تقاليد ثورية عريقة .

٤ ـ من الامثلة التي تطرق ذهني ان احد (المناضلين) الذين تظاهروا بحماس عام ١٩٥٦ تأييدا للشعب العربي في الشقيقة (مصر) وكان ان عانى مضايقات عديدة من قبل سلطات (نوري السعيد) قد فاجأني في أحد الايام وهو يتحدث بحرارة عن (فضائل عشيرته !) ويتفاخر كأي جاهلي قديم !

وشخص آخر يتحدث كماركسي ـ لينيني (!) لم يحجم عن الافراط بالحديث عن (الاشباح) و (الخرافات) و (الدور المسكونة) و (حلول ارواح الموتى من البشر في أجساد الحيوانات !)

٥ ـ من الشواهد التي لا يستطيع المرء أن يتناساها أن المكتبات في العراق سابقا (ما عدا الفترة التي اعقبت حكم ١٧ تموز التقدمي حيث امتلأت المكتبات بأنواع الكتب الهامة ولم تمنع الا الكتب المسمومة والتي تدخل ضمن مخطط ثقافي استعماري صهيوني) قد فرغت من الكتب الثورية واضحى الكتاب مستمسكا للتجريم .

●● وبالنسبة لي كمواطن عادي عانيت اقل مما عاناه الكثيرون لا انسى اني حرقت حوالي أكثر من (ألف كتاب) .. لماذا ؟ لان التحريات كانت قائمة على قدم وساق لتحطيم حرية الفكر وحجب ابسط الحقوق البشرية . ومن بين التحريات التي تعرضت لها زمن حكم (عبد الكريم قاسم) كان ان استحصلوا على الدليل المشهود الذي يدينني وهو (كتاب) !. وكانت النتيجة احالتي الى (المجلس العرفي العسكري) بتهمة سياسية . ولعل من المضحك حقا ان الكتاب هو للاستاذ (قدري قلعجي) واسمه (تجربة عربي في الحزب الشيوعي) وهو في الاساس ضد الحزب الشيوعي بشكل كامل ، ولكني حوكمت على ضوئه كشيوعي !! والعلم في الغيب !

●● وكذلك لا أنسى ان متابعة طويلة ـ قديما ـ من قبل بعض رجال الامن ورائي وذلك لان بيدي كتابا ضخما . اذن فالمسألة على جانب كبير من الخطورة ، ان يحمل الانسان كتابا ، وكتابا كبيرا ؟!

واستمرت المطاردة ـ من قبلهم اما من قبلي فقد كنت أتمشى ـ حتى أمسكوا بي وقبضوا على الكتاب الخطير ، وقد كان الكتاب هو (المنجد) لا غير !

ان هذه الاشياء القديمة تعكس اضطرابا كبيرا في عمل الاجهزة الرسمية ، ولعل مما يبهج حقا اننا الآن في العراق نعيش حياة جديدة تتجاوز كل الاخطاء السابقة والسلبيات بعد أن أدرك الجميع ان الذي يجهز على حرية الفكر انما يرسم لنفسه مصيرا ليس حسنا بأي حال .

من سنان امسكتها يد (عربية) ، يد رجعية لا تجيد سوى طعن ابنـــاء البلد وتنصب من نفسها كلب حراســـة لمصالح الامبرياليين والصهاينة في أرضنا .

ازمة المجتمع العربي أزمة حرية داخلية :

ان المجتمع العربي الكبير في رقعته وفي تأريخه وفي حضارته وفي ملايينه البشرية لم ينتكس في (٥ حزيران) لولا فقدانه الحرية . وهذا الفقدان الكبير جدا قد وضع الامة العربية في موضع عدم التمكن علـى المجابهة . ولان الجماهير أيضا تعيش غيابا سياسيا ـ تعلن عن تمردها عليه كل حين ـ وهذا الغياب لا يعني انها تجهل قضيتها ، بل بالعكس انها تدركها حتى الصميم ولكنها بينها وبين قضيتها الف حاجز وعائق. ان غيابها السياسي هنا هو أنها لم يسمح لهـــا ان تمثل نفسها ، ان تختار نظمها الثورية التقدمية . ولهذا فهي مشغولة في الداخل لتناضل من أجل اظهار صوتها .

والازمة سياسيا ـ في الداخل ـ تنعكس من حقيقتين : الاولـــى حقيقة وجود حكومات عربية رجعية في بعض الاقطار عملت لفترة طويلة على وضع العثرات امام تحرك الجماهير الثوري . والثانية : حقيقـــة نشوء حكومات وطنية عربية انساقت وراء فكر البورجوازية الصغيـــرة وأخذت تنظر بخوف الى تنامي وتصاعـــد النشاط الجماهيري وتحرره الناجز فأقامت شركا خاصا حول الحرية وخلقت نوعا مـن عـدم الثقـة بينها وبين الجماهير .

وبالنسبة للحكومات الرجعية العربية فانهـــا احجبت وبشكـل ارهابي حملات القمع والتعذيب ضد الشعب وهي في ذلك أكدت وراثتها لكل الغرائز الوحشية ولـ (الحريـــة الحيوانية الهائجة فـــي العصر الهمجي) وعممتها بأسلوب حديث يتناسب مع (مكاناتها السامية !).

اما بالنسبة للحكومات الوطنية فهي مع اطلاقها بعض الحريات لـم تتوان عن تقليم اظافر هذه الحريات بالشكل او بالطريقة التـــي ترتاح لها هي .

ولكن تجربة النكسة في حزيران قد رفعت وبصوت مـدو شعار ان حرية الجماهير ، حرية الانسان العربي هي وحدها التي تخلق الانسان المقاتل ، الانسان الذي يعرف كيف ومتى يتصدى لاسرائيل . ولهذا تظل المعركة مع اسرائيل وحماتها الامبرياليين ليست من صالح الشعب العربي اذا لم يتحرر (الانسان العربي ـ المجتمع العربي) تحررا داخليا مؤكدا. وان الخبرة والتجارب الثورية في العالم برهنت بما لا يدع مجالا للشك ان قضايا الشعوب لا يمكن انجازها عن طريق (الوساطات) الخارجيـة او العون الخارجي بل عن طريق يأتي في المقدمة وهو طريق الثقة الكلية بقدرة الشعب على صنع مستقبله ومصيره . وان الشعب الحر هـــو وحده المتمكن من كيل الضربات الثورية لاعدائه الخارجيين . واذا كانت الحرية قانونا عاما في كل الاشياء ، فلماذا لا تترك للجماهير العربيـــة حرية اختيار طريقها الثوري ضمن فهمها لضرورات وجودها وحياتها ؟.. أوليس هذا الاختيار هو المنطق الوحيد الصارم الـــذي تهابه الرجعية الصهيونية ؟!

بغـداد — عزيز السيد جاسم

من سفر الوصايا

(مهداة الى ياسر عرفات واخوته المناضلين)

***

ـ ١ ـ

لا تضعوا الايدي الناعمة الملمس حول الكتفين ..
كثعبانين
لا تلقوا في الاذنين أناشيد الاطراء
لا تسقوه من الخمرة ذات الخدر الاعمى
ودعوه كما انبثقت نافورة ماء ..
في صحراء
ساقٌ .. مكسوٌ بلحاء
ينطلق بأجنحة الليل ، ويقفز فوق جسور النار

ـ ٢ ـ

لا تدعوه الى الظل ليسترخى فيه ، ويحلم بالعربات
والحرس الواقف ـ حول البيت ـ وبعض نكات
أو همسات التليفونات
فيجف العود ، ويحلم في أبراج العاج
أحلام ذوي التاج
من صلبوا كلمات الشعراء على أعواد الاضلاع
من جعلوا الاعين لا تنظر الا في استحياء
من مدّوا مائدة العار لتنهش منها الغربان صباح مساء

ـ ٣ ـ

ولتندرْ نفسك للريح ، وللخيمة ، وذويّ الطلقات
وحين يمور الدمْ ، ويركض في الاوردة ، وفي الاعصاب
لا تطربك سوى القبضات تدق على سور الظلمات

ـ ٤ ـ

لا تجلس فوق بساط ذوي الكلمات المفسولة بالصابون
المنقوعة في محلول الافيون
الفارغة كفقاعات هواء في الماء
وتقرقع في حنجرة الحكماء كقرقعة العربات

ـ ٥ ـ

لا تترك من نبذوا الراحة ، من حملوا الرايات لما هو آت
من ضمّوا الاطفال ، وشمّوا قمصانهم الزاهية اللون
حبسوا الدمعة في العين
حملوا الاسلحة ، وذابوا في أودية الليل
في كل صباح قد يرجع منهم من يرجع ...
لكن قد كفئوا أوعية العار
وراء جدار ..
غسلوها بالدم

القاهرة — كيلاني حسن سند

منشورات دار الاداب

تطلب فـي دمشق من وكيل الدار

مكتبة النوري

شارع سنجقدار